محاكمة العلماء في تكملة الصلة لابن الأبار: أبو عمر الطلمنكي أنموذجا

أ.د. حنيفي هلايلي
جامعة سيدي بلعباس

إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، ولما كان العلماء ورثة الأنبياء، كانوا أشد الناس بلاء وامتحانا، وقد حفظت لنا كتب التراجم والسير آلاف القصص والمواقف التي امتحن فيها العلماء، فأوذوا في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، لكنهم صبروا واحتسبوا وتوكلوا على الله عز وجل، فمنهم من فرج عنه كربته، ومنهم من نال حظه من الشهادة، و في كتاب"المحن" لأبي العرب(ت323ه)،صور كثيرة لعلماء تعرضوا للمحن و الاضطهاد بسب أفكارهم.[1]

1- حياته و نشأته:

هو : أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري المالكي الطلمنكي من طلمنكة ، من ثغر الأندلس الشرقي ، نزيل قرطبة.ذكره « الذهبي » في الترجمةرقم : 748 5 ، ضمن علماء الطبقة العاشرة من حفاظ القرآن. كما ذكره « ابن الجزري » في الترجمة رقم: 833 5 ، ضمن علماء القراءات. ولد « الطلمنكي » سنة أربعين وثلاثمائة ، ورحل إلى المشرق ، فقرأ على : « عليّ بن محمد الأنطاكي ، وعمر بن عراك ، وعبد المنعم بن غلبون ، ومحمد بن علي الأدفوي ، ومحمد بن الحسين بن النعمان ».ثم رجع إلى الأندلس بعلم كثير وكان أول من أدخل القراءات إليها ، حيث جلس لتعليم القرآن وحروف القراءات ، وتتلمذ عليه الكثيرون ، منهم : « عبد الله بن سهل ، ومحمد بن عيسى المغامي ، ويحيى بن إبراهيم ». وروى عنه بالإجازة محمد بن أحمد بن عبد الله الخولاني ، وهو آخر من روى عنه.

صنف « الطلمنكي » الكثير من الكتب منها : الدليل إلى طاعة الجليل ، وكتاب تفسير القرآن ، نحو مائة جزء أيضا ، وكتاب الوصول إلى معرفة الأصول في مسائل العقود في السنة ، و كتاب الرسالة المختصرة في مذاهب أهل السنة، و فهرسة الطلمنكي، وكتاب البيان في إعراب القرآن.[2]

وقد أثنى عليه الكثيرون من العلماء ، وفي هذا يقول « الذهبي » : كان رأسا في علوم القرآن : قراءاته ، وإعرابه ، وأحكامه ، رأسا في معرفة الحديث وطرقه ، حافظا للسنن ، ذا عناية بالأثر والسنة ، إماما بأصول الديانات ذا هدى وسمت ونسك وصمت ».وقال « أبو القاسم بن بشكوال » : كان سيفا مجرّدا على أهل الأهواء والبدع ، قامعا لهم ، غيورا على الشريعة ، شديدا في ذات الله.ثم قصد بلده في آخر عمره ، فتوفي بها في ذي الحجة سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن لب بن يحيى بن قزمان المعافري المقرئ الطلمنكي، يكنى أبا عمر(340- 428هـ/951-1036م) [3] . كانت له عناية كاملة بالحديث و نقله، وروايته و ضبطه، و معرفة رجاله و حملته، حافظا للسنن،جامعا لها،إماما فيها،عارفا بأصول الدين،.و من تأليفه: " الدليل إلى معرفة الجليل"، و تفسير القرآن، و كتاب " الوصول إلى معرفة الأصول، و كتاب " البيان في إعراب القرآن"، و "فضائل مالك"، و "رجال الموطأ"، و " الرد على أبي مسرة". [4] أصله من طلمنكة إحدى كور مدريد، سكن قرطبة زمن الخلافة الأموية. و هو من أصل عرب الجنوب (قبيلة معافرة). انتقل زمن ملوك الطواف في بلاد الأندلس فزار ألمرية و مرسية و سرقسطة [5]التي مكث بها خمس سنوات(420-425هـ/1029-1034م) . و في سنة 425هـ صدر أمر بمحاكمته و هو الأمر الذي جعله يرتحل من هذه المدينة بعد نهاية المحاكمة.

مدينة سرقسطة :

طائفة سرقسطة هي دويلة مستقلة تكونت أثناء فترة فتنة الأندلس عام 403 هـ/1013 م على أنقاض ولاية الثغر الأعلى إحدى ولايات الدولة الأموية في الأندلس، وظلت على استقلاليتها حتى ضمها المرابطون عام 503 هـ/1110 م. كان لسرقسطة دورها السياسي والثقافي البارز في تلك المنطقة في عهد حكامها المقتدر والمؤتمن والمستعين .ولا زال قصر الجعفرية يشهد على التقدم العمراني الذي وصلت إليه تلك الدويلة. قال أحد المؤرخين عن سرقسطة :"وهي قاعدة من قواعد الأندلس، كبيرة القطر، آهلة، ممتدة الأطناب، واسعة الشوارع، حسنة الديار والمساكن، متصلة الجنات والبساتين، ولها سور حجارةٍ حصين، وهي على ضفة نهرٍ كبيرٍ، يأتي بعضه من بلاد الروم، وبعضه من جبال قلعة أيوب ومن غير ذلك؛ فتجتمع مواد هذه الأنهار كلها فوق مدينة تطيلة، ثم تنصب إلى مدينة سرقسطة؛ ومدينة سرقسطة هي المدينة البيضاء، وسميت بذلك لكثرة جصها وجيارها؛ ومن خواصها أنها لا تدخلها حية ألبتة، وإن جلبت إليها ماتت؛ فمن الناس من يزعم أن فيها طلسما لذلك، ومنهم من يقول إن أكثر بنيانها من الرخام الذي هو صنف من الملح الدراني؛ ومن خاصيتها ألا تدخل الحناش موضعاً يكون فيه، وكذا بأقاليم عدة.

ولسرقسطة جسر عظيم يجاز عليه إلى المدينة، ولها أسوار منيعة، ومبانٍ رفيعة. واسمها مشتق من اسم قيصر أغسطس، وهو الذي بناها، وذكر أنها بنيت على مثل الصليب وجعل لها أربعة أبواب: باب إذا طلعت الشمس من أقصى المطالع في القيظ قابلته عند بزوغها، فإذا غربت قابلت الباب الذي بإزائه من الجانب الغربي، وباب إذا طلعت الشمس من أقصى مطالعها في الشتاء قابلته عند بزوغها وهو الباب القبلي؛ وإذا غربت قابلت الباب الذي بإزائه".

استغل التجيبيون الصراع الدائر على السلطة بين الأمويين في قرطبة، فأسس زعيمهم المنذر بن يحيى التجيبي دويلتهم الجديدة في الثغر الأعلى التي قاعدتها سرقسطة عام 403 هـ/1013 م، والتي شملت مدن مدينة سالم وقلهرة وأرنيط وتطيلة وبربشتر ولاردة ومنتشون .استطاع المنذر أن يحافظ على استقلالية دويلته عن طريق عقد تحسين علاقاته مع الممالك المسيحية المجاورة،[6]وهي السياسة التي لم يحافظ عليها ولده يحيى المظفر، ففقد بعض أراضيه لصالحهم [7].خلف المنذر بن يحيى بن المنذر أباه حتى عام 430 هـ، عندما اغتاله ابن عم له يدعى عبد الله بن الحكم وجلس محله،[8]فاستغل سليمان بن هود الذي كان قد استقل بحكم لاردة الموقف، وخلع ابن الحكم، وأسس لحكم بني هود في سرقسطة.

لم تمض سوى أعوام قليلة على حكم سليمان بن هود لطائفة سرقسطة حتى دخل في صراع مع جيرانه بني ذي النون حكام طائفة طليطلة وأصهار بني تجيب الذين اقتلعهم ابن هود من حكم سرقسطة. استعان ابن هود بفرناندو الأول ملك ليون وقشتالة لقتال بني ذي النون، الذين تحالفوا بدورهم مع غارسيا سانشيز الثالث ملك نافارا .أجبر ذلك ابن هود وبني ذي النون على دفع جزية سنوية للملكين المسيحيين لضمان مساعدتهما على قتال كل منهما للآخر، مما أضعف الطائفتين اقتصاديًا وعسكريًا وسياسيًا أمام المملكتين المسيحيتين المجاورتين.

توفي سليمان بن هود عام 438 هـ، بعد أن قسّم دويلته بين أبنائه الخمسة، لكن لم يمض الكثير حتى ابتلع ابنه أحمد المقتدر ملك ثلاثة من إخوته ليضمها إلى قاعدته سرقسطة، ولم يبق من ملك إخوته سوى لاردة التي كانت وبعض توابعها تحت حكم أخيه المظفر. دخل المقتدر حربًا طاحنة مع أخيه الذي استبسل لأكثر من ثلاثين عامًا في مقاومة أطماع المقتدر إلى أن هزم المقتدر أخيه

المظفر عام 472 هـ، وضم أراضيه لتوحّد الطائفة من جديد تحت لوائه .خلال تلك الفترة، استطاع المقتدر ضم طائفة طرطوشة من يد صاحبها نبيل الصقلبي عام 452 هـ، ومن بعدها انتزع دانية من يد صهره علي بن مجاهد العامري عام 468 هـ[9].

و بالرغم تلك المكاسب، كان بنو هود في صراع دائم مع جيرانهم المسيحيين خاصة مملكة أراغون حيث حاصر راميرو الأول ملك أراغون العديد من المدن الحدودية بينهما مثل بربشتر وجرادوس مرات عدة إلى أن قُتل راميرو نفسه أمام جيش المقتدر وحلفائه القشتاليين وهو يحاول غزو جرادوس عام 455 هـ/1063 م . وفي العام التالي 456 هـ، اجتاح النورمانديون بربشتر، وأوقعوا بأهلها مذابح عظيمة، مما كان له وقعه السيء على أمراء الطوائف، الذين تحالفوا مع المقتدر واستعادوا المدينة في جمادى الآخر 457 هـ .وبعد أن نجح ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة في توحيد المملكتين، أُجبر المقتدر على أداء الجزية لألفونسو حفاظًا على إمارته.[10]

توفي المقتدر عام 474 هـ، وكأبيه قسّم إمارته بين ولديه يوسف المؤتمن الذي حكم سرقسطة ووشقة وتطيلة وقلعة أيوب، والمنذر الذي حكم لاردة وطرطوشة ودانية، وسرعان ما دبت الحرب بين الأخوين، حيث استعان فيها المؤتمن بالفارس القشتالي السيد الكمبيادور وجنوده المرتزقة، وتحالف المنذر مع مع سانشو راميرز ملك أراغون وبرانجيه ريموند الثاني كونت برشلونة .استخدم المؤتمن الكمبيادور للدفاع عن الحدود الشمالية لأراضيها أمام حملات سانشو راميريز ملك أراغون . حاول المؤتمن أن يستولي على بلنسية من يد صاحبها أبي بكر بن عبد العزيز بمعاونة من ألفونسو السادس، إلا أن المحاولة فشلت، فلجأ ابن عبد العزيز إلى

أن عرض على المؤتمن تزويج ابنته لأحمد المستعين بن المؤتمن، وهي المصاهرة التي تمت في عام 477 هـ، وكانت سببًا في إرجاء أطماع بني هود في بلنسية. وفي 478 هـ، توفي المؤتمن وخلفه ابنه المستعين .تزامن ذلك مع استيلاء ألفونسو السادس على طائفة طليطلة الدويلة المجاورة لسرقسطة في صفر 478 هـ. وما أن انتهى ألفونسو من طليطلة، حتى توجه بصره إلى سرقسطة، فحاصرها في بداية فترة حكم المستعين، ولم يفك حصاره عنها إلا بعدما بلغته أخبار عبور المرابطين إلى الأندلس لنجدة المسلمين، مما حمله على فك حصاره، والتوجه جنوبًا مع قواته لقتالهم . (11)

وفي عام 487 هـ، حاصر سانشو راميريز وشقة، فأرسل المستعين ابنه عبد الملك إلى المغرب للاستنجاد بيوسف بن تاشفين، فبعث ابن تاشفين إلى ولاته في شرق الأندلس ليمدوا المستعين بقوات تدافع عن وشقة، كما لجأ المستعين إلى ألفونسو السادس فأمده ببعض قواته. وتوفي سانشو راميرز في جمادى الأولى 487 هـ، وهو يحاصر وشقة، فخلفه ابنه بيدرو الأول ملك أراغون ونافارا الذي واصل الحصار حاول المستعين فك الحصار، إلا أنه هزم أمام قوات بيدرو في ذي القعدة 489 هـ، فيأس أهل وشقة وسلّموا المدينة الذي اتخذها بيدرو عاصمة جديدة لمملكة أراغون .ثم حاصر ألفونسو الأول ملك أراغون تطيلة، فقاتله المستعين وقتل في المعركة التي وقعت في رجب 503 هـ في بلتيرة، فخلفه ابنه عبد الملك عماد الدولة الذي اشترط عليه أهل سرقسطة ألا يستعين بالمسيحيين، فلم يف بعهده معهم، مما دعا أهل سرقسطة لأن يبعثوا برسلهم إلى علي بن تاشفين أمير المرابطين يدعونه لحكم مدينتهم. فأرسل ابن تاشفين قائده محمد بن الحاج اللمتوني والي المرابطين على بلنسية بقوات دخلت المدينة في ذي القعدة 503 هـ، ففر عماد

الدولة إلى حصن روطة لينتهي بذلك حكم بني هود لسرقسطة، وتنتهي استقلالية طائفة سرقسطة، لتغدو إحدى ولايات المرابطين. (12)

حكم ابن الحاج المدينة لخمس سنوات قاوم فيها محاولات ألفونسو الأول ملك أراغون المتكررة لغزو المدينة، ثم خلفه ابن تافلوت لعامين ثم توفي. وفي ذي الحجة 511 هـ- مارس 1118 م، بدأ ألفونسو حصاره الأخير للمدينة، إلى أن استولى على المدينة بعد عدة أشهر من الحصار.

أخذ الطلمنكي العلم عن 56 شيخا و هذا الذي جعل كتب التراجم و الطبقات تعده من شيوخ القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي بالأندلس .لقد رحل إلى المشرق لأخذ العلم عن شيوخها و كانت رحلته على النحو التالي:

الأقاليم التي زارها الطلمنكي	القيروان	مصر	المدينة	مكة	الأندلس
عدد الشيوخ الذين تلقى عنهم العلم	2	9	1	2	35

كان أحد الأئمة في علم القرآن العظيم قراءته و إعرابه، و أحكامه، و ناسخه، و منسوخه،
و معانيه. وكان أساسا في القراءات،فقيه حافظ محدث.و ثقة في الرواية مشهورا.

2- نزاهة القضاء بالأندلس في محنة الشيخ أبوعمر الطلمنكي:

يعطينا ابن الأبار في التكملة صورة تصحيحية لقضية أبي عمر الطلمنكي

[13]أحد فقهاء سرقسطة، الذي عاد من المشرق بأفكار حول الفقه في كتابه "الوصول في معرفة الأصول" [14]. لقد كان أبو عمر الطلمنكي من هؤلاء العلماء الذين عرف عنهم تشددهم في الالتزام بالسنة، فامتحنوا في أعراضهم، حيث اتهمه جماعة من الفقهاء الأندلسيين السرقسطيين بأنه حروري، على خلاف السنة، سفاك للدماء، يرى وضع السيف على صالحي المسلمين، واجتمعوا على ذلك ووقعوا صك الدعوى وكانوا خمسة عشر من الفقهاء والنبهاء بسرقسطة.

وكان ممن شهد ضده 15 رجلا فشهدوا بأنه أباح سفك دماء المسلمين و أنه يرى وضع السيوف على رقاب المسلمين .فنظر القاضي حينها محمد بن عبد الله بن فرتون، أبو عبد الله(ت: بعد 425) في نص الدعوى، وجمع لذلك الفقهاء المشاورين المفتين فشاورهم فاجتمع رأيهم على أن الدعوى باطلة ، وأفتوا بإسقاطها وتزوير أهلها، فحكم القاضي ببراءة أبي عمر الطلمنكي وإسقاط شهادة الذين نسبوه إلى مخالفة السنة.وفيما يلي وثيقة الدعوى بطريقة مفصلة.

الدعوى: وجهت لأبي عمر الطلمنكي تهمتين :

أن أبا عمر الطلمنكي حروري، على خلاف السنة، سفاك للدماء، يرى وضع السيف على صالحي المسلمين.

المدَّعون:

وكانوا خمسة عشر من الفقهاء والنبهاء بسرقسطة منهم:

-محمد بن رافع بن غربيب(ت بعد 425)

-إسماعيل بن أحمد بن المعلم الدراج(ت بعد 425).

-والحسن بن محمد بن هالس

المدعى عليه:

-أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى لب بن يحيى بن محمد بن قزلمان

المعافري المقرىء الطلمنكي أصله منها يكنى : أبا عمر

القاضي:

-محمد بن عبد الله بن فرتون, أبو عبد الله(ت بعد 425)

المشاورين (المفتين): -عبد الله بن ثابت بن سعيد بن ثابت بن قاسم بن ثابت بن حزم أبو محمد العوفي. -حسين بن إسماعيل بن حسين الغفاري(ت بعد 425).

-عبد العزيز بن جوشن(ت بعد 425). -عبد الله بن سعيد بن عبد الله اللخمي(ت بعد 425). -عبد الصمد بن محمد بن خصيب(ت بعد 445). -إبراهيم بن عيسى بن مزاحم الأموي. -سعيد بن محمد بن عبد الرحيم.

الحكم: -براءة أبي عمر الطلمنكي وإسقاط شهادة الذين نسبوه إلى مخالفة السنة وتزوير أهلها وذلك عن رأي القاضي محمد بن عبد الله بن فرتون.

الكاتب:أبو الحكم بن غشليان، **التاريخ:**جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وأربعمائة.

وفي الختام يمكن القول بأن علاقة السلطة زمنذ بالعلماء كانت في أغلبها علاقة تنافر وتباعد ومواجهة ، وسلكت المؤسسة الحاكمة في مواجهة العلماء العاملين مجموعة من الأساليب التي تراوحت بين المراقبة والمتابعة وإلصاق تهم الخروج عن السنة ، والملاحقة والإبعاد والاعتقال والسجن والاغتيال، وكلها أسليب تفصح عن مدى خطورة علماء التجديد كتيار فكري فرض نفسه في المجتمع الأندلسي الوسيط ، بيد أنها عجزت عن قطع دابر هؤلاء العلماء في مراحل لاحقة ، فاضطرت إلى نهج أسلوب جديد معهم يتجلى في أسلوب الاحتواء والمهادنة ، ولكن وضعيتها آنذاك كانت قد بدأت تجنح نحو الانهيار.

الهوامش:

(1) أبو العرب، المحن (تحقيق :يحيى وهيب الجبوري) ط3،بيروت: دار الغرب الإسلامي ، 1427هـ-2006م.

(2) أبو بكر بن خير الأموي الأشبيلي، فهرست مارواه عن شيوخه، (نشر فرنشكة قداره زيدين و خليان ربارة طرغوه)، ط3،القاهرة: مكتبة الخانجي،1417هـ/1997م. ص 28 و ص 259 و ص 430.

(3) حول سيرته و حياته يرجى العودة إلى :

- أبو القاسم خلف بن بشكوال، الصلة في تاريخ علماء الأندلس،(ضبط و شرح: صلاح الدين الهواري)،ط1،صيدا: المطبعة العصرية،1423هـ/2003م، ج1، ص 52، ترجمة: 92.

- أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، جدوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس،(ضبط و شرح: صلاح الدين الهواري)،ط1،صيدا: المطبعة العصرية،1425هـ/2004م.ج3،ص 116،ترجمة:187.

- أبو جعفر أحمد بن عميرة الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس،(ضبط و شرح: صلاح الدين الهواري)،ط1426،1هـ/2006م،صيدا: المطبعة العصرية،ص 152،ترجمة:348.

- القراء الكبار للذهبي ج 1 ، ص 385. طبقات القراء لابن الجزري ج 1 ،ص 120. النجوم الزاهرة ج 5 ، 28.

و أيضا : محمد سالم ،محسين، معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ،بيروت: دار الجيل،1990،/مج 2، ص 198.

(4) إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب،(تحقيق: علي عمر)،ط1423،1هـ/2003م،القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، مج 1، ص 155-156.، ترجمة: 55.

(5) **سرقسطة** *بالإسبانية*: Zaragozaهي عاصمة مقاطعة سرقسطة وهي أيضا عاصمة منطقة أراغون في شمال شرق إسبانيا، تقع على نهر إبره. قال أحد المؤرخين عن سرقسطة :"وهي قاعدة من قواعد الأندلس، كبيرة القطر، آهلة، ممتدة الأطناب، واسعة الشوارع، حسنة الديار والمساكن، متصلة الجنات والبساتين، ولها سور حجارةٍ حصين، وهي على ضفة نهرٍ كبيرٍ، يأتي بعضه من بلاد الروم، وبعضه من جبال قلعة أيوب ومن غير ذلك؛ فتجتمع مواد هذه الأنهار كلها فوق مدينة تطيلة، ثم تنصب إلى مدينة سرقسطة؛ ومدينة سرقسطة هي المدينة البيضاء، وسميت بذلك لكثرة جصها وجيارها؛ ومن خواصها أنها لا تدخلها حية ألبتة، وإن جلبت إليها ماتت؛ فمن الناس من يزعم أن فيها طلسما لذلك، ومنهم من يقول إن أكثر بنيانها من الرخام الذي هو صنف من الملح الدراني؛ ومن خاصيتها ألا تدخل الحناش موضعاً يكون فيه، وكذا بأقاليم عدة. ولسرقسطة جسر عظيم يجاز عليه إلى المدينة، ولها أسوار منيعة، ومبانٍ رفيعة. واسمها مشتق من اسم قيصر أغسطس، وهو الذي بناها، وذكر أنها بنيت على مثل الصليب وجعل لها أربعة أبواب: باب إذا طلعت الشمس من أقصى المطالع في القيظ قابلته عند بزوغها، فإذا غربت قابلت الباب الذي بإزائه من الجانب الغربي، وباب إذا طلعت الشمس من أقصى مطالعها في الشتاء قابلته عند بزوغها وهو الباب القبلي؛ وإذا غربت قابلت الباب الذي بإزائه".

[6] ابن عذاري ج3 ،1983، ص 177

[7] عنان ج2 1997ص268

[8] نفسه، ص 270.

[9] ابن عذاري ج3 ،1983ص 222

[10] عنان ج2 1997ص 405.

[11] ابن عذارى، المصدر السابق 3/ص 225.

[12] نفسه.

[13] أنظر: محمد بن عبد الله بن فرتون من أهل سرقسطة وقاضي الجماعة هو الذي انتصر لأبي عمر الطلمنكي ومن الشهداء عليه وكان ذلك سنة 425هـ أنظر: ابن الأبار البلنسي، التكملة لكتاب الصلة، (تحقيق: عبد السلام الهراس) بيروت: دار الفكر،1415ه/1995م،ج1،ص 310، (ت: /1092).

[14] محمد، مكي: "التصوف في الأندلس"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1954م، ص ص: 93-149.